المحاضرة الأولى: الزراعة وأنواع الإنتاج:

***هدف المحاضرة1: أن يتعرف الطالب على العوامل المتحكمة في الزراعة في الجزائر خلال العهد العثماني، كما يتعرف على أنواع المنتوجات في تلك الفترة وأمكنة تواجدها**

كثيرة هي النشاطات الاقتصادية التي مورست في الجزائر خلال العهد العثماني، تنوعت وتعددت بتعدد المجالات سواء في الزراعة، أو في الصناعة، أو في التجارة، غير أنها تحكمت فيها ظروف معينة وأثرت فيها عوامل جمة طبيعية، تاريخية، محلية وإقليمية وغيرها...، وعلى هذا الأساس نحاول من خلال هذه المحاضرات إلقاء الضوء على تاريخ الجزائر الاقتصادي في الفترة الحديثة، وتتمحور الإشكالية عموما لهذا المقياس حول ماهية النشاطات الاقتصادية التي عرفتها الجزائر إبان العهد العثماني وما هي أهم مميزاتها؟ وها هي خصائص كل نشاط اقتصادي على حدا؟ وما هي الظروف والعوامل التي تحكمت فيها من 1518 إلى 1830؟ دون أن ننسى جانب مهم في هذا الشأن وهو الضرائب (أو النظام الضرائبي) الذي أثر في النشاطات الاقتصادية وتأثر بها، وهذا كله وفق البرنامج المسطر من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي المبين أعلاه.

أولا-النشاط الفلاحي:

1-1الزراعة:

إن نمط العيش ونوعية التربة وكذلك الظروف المناخية عوامل تحكمت تحكما مباشرا في الزراعة في الجزائر خلال العهد العثماني، حيث اختصت السهول الساحلية والداخلية بزراعة الحبوب والبقول، واختصت المناطق الجبلية بالأشجار المثمرة وتركز الرعي في مناطق السهوب مع وجود زراعة معاشية بسيطة، وكان سكان مناطق الأطلس الصحراوي والسهول الوهرانية والمناطق المرتفعة كالونشريس والأوراس يعتمدون على الرعي كليا والزراعة المروية في أماكن المياه كالأودية.

كما أن أسلوب الحياة ونمط العيش أدى إلى الاعتماد على الزراعة المعاشية الاستهلاكية بمناطق التل، حيث كانت تطلعات الفلاح هي تلبية حاجاته الضرورية وإرضاء البايليك بمطالبه المخزنية، ففي جرجرة والأوراس مثلا صار السكان يتنقلون إلى أعالي الجبال صيفا طلبا للمراعي وينزلون بطون الأودية شتاء لخدمة البساتين الواقعة قريبا من المجاري المائية (وهذا ما اصطلح على تسميته ب: **الاقتصاد المزدوج؛ رعوي-زراعي**).

والجدير بالذكر أن الاقتصاد في هذه الفترة كما قال الدكتور ناصر الدين سعيدوني كان: **"اقتصادا مغلقا"**، أي أنه يتصف بضآلة المردود وقلة الإنتاج، الذي صار مع مطلع القرن التاسع عشر لا يتعدى مطلبين أساسيين هما:

سد حاجة الأهالي من جهة وإمداد البايليك ببعض المحاصيل من جهة أخرى، والتي يستهلك جزء منها في المدن وجزء آخر يصدر إلى الخارج.

1-2-**أنواع الإنتاج**: لقد توفرت في الجزائر إبان العهد العثماني العديد من المحاصيل الزراعية، وفي مقدمتها:

أ- الحبوب:

والتي منها القمح بنوعيه؛ **القمح الصلب (البليوني)**، وجد في مناطق الأطلس التلي والهضاب الداخلية، يصنع منه الخبز الجيد ويقبل عليه التجار الأجانب ويصدر إلى الخارج، و**القمح اللين** وجد في المناطق الساحلية والسهول المنخفضة، وهو قمح ذو نوعية رديئة، وهذا بسبب الرطوبة ونوعية التربة وكمية التساقط، وقد ذكر حمدان بن عثمان خوجة في كتابه المرآة ذلك، حيث قال:" إنني أحد المالكين في متيجة وأزرع سنويا في هذا السهل ولحسابي الخاص حوالي مائة وستين حمولة جمل من القمح وحوالي مائة أو مائة وعشرين من الشعير"، وقال أيضا:"إنه من أحط أنواع القمح لكونه داكن ونشاؤه قليل ولا يمكن الاحتفاظ به أكثر من سنة واحدة لسرعة تعرضه للانحلال والتلف".

ونظرا لأن الدولة تصدر الحبوب إلى الخارج فقد قامت بالسيطرة على العديد من المساحات المخصصة لذلك، والتي كانت موجودة حول قسنطينة، قلعة بني راشد، غريس، مستغانم، تلمسان، التيطري...، والجدير بالذكر أن مساحة أراضي الحبوب في بايليك الشرق أواخر العهد العثماني كانت بما يعادل 4800جابدة، وفي بايليك الغرب كانت حوالي 3500 جابدة (مع العلم أن مساحة الجابدة الواحدة تتراوح بين 8 و10 هكتارات)، وتبقى لغة الأرقام تقريبية غير دقيقة في هذه الفترة.

ب-الخضراوات:

مثل الطماطم، الخيار، البصل، البطاطا، الفلفل، البطيخ....،حيث كانت فحوص المدن تنتج منها كميات كبيرة توجه إلى الأسواق في المدن، وقد دونت في سجلات الدولة ومذكرات الرحالة أسعار مختلف هذه البقول والخضراوات، مثلما ذكره الرحالة الفرنسي ديسفونتين سنة 1785، والمبعوث الفرنسي إلى الجزائر شوفالييه دارفيو بين سنتي 1775-1776.

ج-الأشجار المثمرة:

مثل المشمش، الخوخ، العنب، التين، الزيتون، البرتقال...، لقد تحسنت هذه الزراعة بفضل عمل الأندلسيين في الفترة الأولى من القرن 10ه/16م، كما ظهرت زراعة التوت بنوعيه الأسود والأبيض في نواحي شرشال والقليعة، وانتشرت زراعة البرتقال والعنب حول مدينة الجزائر والبليدة، كما انتشرت زراعة الزيتون بنواحي عنابة ومنطقة القبائل....

د-المزروعات التجارية:

مثل القطن، الكتان، الأرز والتبغ، ولقد كان الأرز يوجد في نواحي مليانة، معسكر، مستغانم وفي غرب متيجة (وسجلت الجزائر حوالي 6 آلاف صاع في أواخر القرن 12ه/18م). بينما القطن كان موجودا في سهول مينا، الشلف، مستغانم (تصنع منه الملابس)، في حين كان التبغ في نواحي عنابة ودار السلطان وفي بعض الواحات الصحراوية، وكان تبغ وادي سوف متميزا بنكهته وإقبال المدخنين

عليه (قنطار يساوي 20 بوجو)، وتبغ أولاد شبلي بمتيجة من أحسن الأنواع. كما وجد العسل والشمع في إقليم عنابة والقالة وجبال بايليك الغرب.

ه-الأشجار الغابية:

كانت تغطي مساحات واسعة في منطقة التل والهضاب العليا وجبال الأطلس الصحراوي، ومن ثم انحسرت مساحتها بسبب الاستغلال والقطع، ولا سيما في بناء السفن حيث أتلفت غابات بجاية وجيجل وشحنت أخشابها إلى مدينة الجزائر لصناعة السفن، وهذا بأمر من شيوخ القبائل المتعاونين مع الحكام الأتراك مقابل الحصول على امتيازات وترضيات، وقد عرف هذا التعاون بين العائلات الإقطاعية مثل عائلة المقراني مع رجال البايليك بنظام **الكراستة**.